مقدمة

الحمد لله العليم الحكيم، القائل في كتابه الكريم: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، والقائل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**صلاحُ ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة. لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فأصل هذه (النظرات) أحاديث ألقيت من إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية، رأيت إخراجها مطبوعةً بعد تعديل طفيف جداً على شكلها الذي أذيعت به.

واختيار إطلاق (فقه الائتلاف) على هذه (النظرات) بدلاً من (فقه الاختلاف)، - مع أن غايةَ التسميتين واحدةٌ - هو أن الاسم الأول يتّضح فيه الهدف الأسمى الذي ترمي إليه، وهو تقريب الفجوة بين العقول والأفكار، وردمُها تماماً بين القلوب والمشاعر، بحيث يتحقق قول الشاعر الحكيم:

اختلاف الرأي لا يفسد ∴ للودّ قضيّة

obeikandl.com

أما الدافع إلى كتابتها فهو ما نراه، ونسمعه، ونقرؤه من واقع جُلّ المسلمين الذي يدمي القلوب: فبأسهم بينهم شديد، قلوبهم شتى، يتناحرون، ويتباغضون، ويتحاسدون، ويتنابزون بالألقاب، يقتل بعضهم بعضاً، ويأكل الواحد منهم لحم أخيه، ويتهمه بأبشع التهم وأشنعها، ولو اتضحت أمام عقولهم بعض الحقائق، وربيت نفوسهم على بعض الخلائق، لزال كثير مما يعانون منه ويقاسون، ولاجتمعت كلمتهم، وتكاتفت جهودهم أمام عدوهم الذي يسرّه ما هم فيه، ويعمل على استغلاله، وإذكاءِ ناره لتزداد اشتعالاً، لا تأكل الأخضر واليابس فحسب، بل تزهق الأرواح، وتمحق الأموال، وتخرّب البلاد، وتشتت العباد. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذا الموضوع قد سبق إلى الكتابة فيه كثيرون في القديم والحديث؛ منهم الأئمة الأعلام، ومنهم العلماء الأفاضل، ومنهم من هو دون ذلك، وأنا من علمهم أقتبس، ومن كتبهم أختار[1].

(١) مقتضى البحث العلمي: التوثيق الدقيق لكل ما يرد فيه، وعزو كل نقل إلى مصدره، ومع الأسف فإن هذه الصفحات جاءت خالية من هذا التوثيق - ما عدا بعض الإشارات في صلب المقالات - لأن طبيعة الأحاديث الإذاعية لا تقتضيه، وتعسّر تلافيه قبل الطباعة.

أيها القارئ الكريم: لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يختلف الناس في أكثر الأمور، الصغير منها والكبير، ومن أسباب ذلك اختلافهم: في العقل، والذكاء، والعلم، وقوة الذاكرة، وفي الأمزجة، والميول، وفي البيئات التي ولدوا فيها، ونشؤوا وتعلموا... فما يحبه هذا يكرهه ذاك، وما يوافق عليه زيد يخالف فيه عمروٌ، وما يراه عالم من العلماء حقاً وصواباً يراه آخر خطأً وباطلاً.

هذا واقع مُشاهَد، وجمع الناس على رأي واحد - فيما عدا أساسيات الدين وبدائه العقول - غير مطلوب؛ لأنه منافٍ للطبائع المشاهدة والواقع المحسوس.

بل أصبح حُسن التعامل مع الخلاف والاختلاف من علامات النضج النفسي، والحكمة العملية. وقد أدرك هذا كثير من العقلاء من الذين لم يهتدوا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، أذكر منهم اثنين:

الأول جيري ويزنيسكي في كتابه: تسوية الخلافات في العمل، والثاني الدكتور ريتشارد كارلسون في كتابه القيم: لا تهتمَّ بصغائر الأمور مع أسرتك.

يقول الأول، وهو مستشار في مجال الإدارة وعلاقات الموظفين:

«نحن في حاجة إلى التركيز على أفضل طريقة للتعامل مع الخلاف، بدلاً من الادعاء بأنه سيزول من تلقاء نفسه؛ وذلك لأن الخلاف أمر طبيعي، وهو عنصر فعّال في الاتصال بين الأفراد، وإذا تمّ التعامل مع الخلاف بشكل جيد، فسوف تتمّ تسويته في الغالب، ويحقق نتائج جيدة، وحلولاً مبتكرة... إن مدير أي مؤسسة لن يكون ناجحاً دون المقدرة على إدارة الخلاف والتعامل معه».

ويقول الثاني، وهو متخصص في علم النفس وعلم الاجتماع:

«لكل منا شخصيته المميّزة، ونظرته الخاصة للحياة.. ولكل شخص القدرة على انتقاد الآخرين، وإيجاد الأخطاء في أسلوب تفكيرهم وتصرفاتهم. ويمكن لكل شخص أن يثبت - عن طريق التركيز على بعض الأمثلة والاستشهادات التي تَدْعَمُ رأيه أو اعتقاده - أن نظرته صحيحة ومنطقية.

«فلماذا إذاً - وكلنا نعرف هذا - نضيق صدراً بالاختلاف؟ لماذا نغضب عندما يعبّر شخص نعرفه أو لا نعرفه، تربطنا به

صلة أو لا تربطنا، عن رأي مغاير لرأينا، أو وجهة نظر مختلفة، أو يفسّر أمراً تفسيراً مغايرا، أو يرى أننا على خطأ؟

«إن الاختلاف من سُنة الحياة، وبدلاً من أن يدهشك وقوعُه عليك أن تتوقعه وتتقبله، وبدلاً من أن تغضب عندما يختلف معك شخص ما حاول أن تتفهم موقفه، وبدلاً من أن تتحفّز للصراع معه حاول أن تتذكر بفرح وامتنان نِقاط الاتفاق والالتقاء بينكما، وما أكثرها!

«إن تقبل الخلاف لا يعني أن وجهة نظرك أقلُّ أهمية أو أقلُّ صحة.. وقد تريد التمسك بآرائك، وهذا من حقك، ولكن لا تنس - وأنت تفعل ذلك - أن تبدي احتراماً وتفهماً لآراء الآخرين، فهذا ينهي قدراً كبيراً من المشكلات... وسوف تتعلم أن تأخذ من الآخرين أفضل ما عندهم، وتسمح لهم أن يأخذوا أفضل ما عندك، وبهذا يكسبُ الجميع».

إن اتساع الصدر للآراء المخالفة، وحسنَ تقبل الآخرين، ومجادلة البعيدين عنا بالتي هي أحسن، هي آداب قرآنية نبوية إسلامية تدل على نضج من يتحلى بها، وقد يحظى بها شاب حديث السّن، ويُحرم منها شيخ طاعن في السن:

وما الحداثةُ من حلْمٍ بمانعةٍ قد يظهر الحِلمُ في الشبّان والشّيبِ